

**ابن خلدون
و علوم اللسان العربي**

الأستاذ سالم علوي
معهد اللغة العربية وآدابها
جامعة الجزائر
ماي 1993

ابن خلدون وعلم اللسان العربي

الأستاذ سالم علوي
معهد اللغة العربية وآدابها
جامعة الجزائر
ماي 1993



ابن خلدون موسوعة علمية ، أحاط بكل علوم عصره دراية وتطبيقا ، وأسس لكل علم أصوله ومبادئه الخاصة به ، ولذا تباينت الدراسات حول معارفه العلمية . فعالم الاجتماع يرى أنه عالم إجتماعي ، والمؤرخ يرى أنه عالم بتاريخ الأولين والآخرين ، وعالم الإقتصاد يرى أنه خبير بعلم الإقتصاد وهلم جرا .

وبحثنا هذا يتناول زاوية طالما تجاهلها الباحثون ، ولم يخصصوا لها مكانة بارزة في مباحثهم ، وإن أشاروا إليها فبتلميحات لا تنفي بالغرض الذي نسعى إلى إبرازه ، وهو ابن خلدون العالم اللساني المتبحر في علوم اللسان العربي بصفة خاصة ، وعلوم اللسان البشري بصفة عامة .

فابن خلدون أخذ بمجامع اللسان العربي من كل جوانبه وإن برزت فكرة جامعة بين مختلف الألسن البشرية أشار إليها بقوله : " وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم " (1) . وانصبت اهتماماته على خصائص اللسان العربي ومميزاته الصوتية ، والصرفية والنحوية والبيانبة ، وما طرأ على هذا اللسان من تحولات وتغييرات في بنيته الأصلية ، ويحقق في أسباب التطور الذي حدث في اللسان العربي المبين ، ويخص أعلام كل علم بالذكر منها بما لهم من محاسن وناقدا ما عليهم من مثالب ، فهو عندما كان يتحدث عن أساطين علماء البيان في تفسير القرآن خص بذلك الزمخشري فقال : « وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون ، وأكثر تفاسير المتقدمين غُفْلُ منه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير ، وتشيع أي القرآن بإحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه ، فانفرد بهذا الفضل علي جميع التفاسير " (2) .

1- ابن خلدون المقدمة ص : 1056 دار الكتاب اللبناني بيروت 1960.

2- ص . 1068.

*إنهاء : تتكرر بعض الإحالات أكثر من مرة في سياق النص و بدون ترتيب ؛ ولذلك يرجى العودة إليها حسب ما أوردها المؤلف في الهوامش

ثم لا يلبث أن يعقب على هذا الإعجاب بقوله : " لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتحاماها كثير من أهل السنة ، مع وفور بضاعته من البلاغة " (2)

كيف نظر ابن خلدون إلى علوم اللسان العربي ؟

إعتاد ابن خلدون في مقدمته أن يؤسس مختلف العلوم على أصول ثابتة وفروع تتفرع عنها ، فبنى اللسان العربي على أربعة أركان ، ورتب هذه الأركان أو الأصول مراتب متفاوتة فيما بينها حسب توفيقها لأداء المقاصد التي يقصدها المتكلم فقال عن اللسان العربي: " أركانه أربعة وهي : اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهي بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغتهم ، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة " (1)

ماهي هذه العلوم المتعلقة باللسان العربي ؟ وكيف يعرفها ابن خلدون ، وينزلها منازلها بمقتضى ما يقتضيه الأهم ثم المهم فيقول :

" والذي يُتَحَصَّلُ أن الأهم المقدم منها هو النحو ، إذ به يُتَيَّنُ أصولُ المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لَجْهَلَ أصلُ الإفادة . " (3)

ثلاث كلم هي مفاتيح هذا النص الخلدوني هي :

أ - الأهم

ب- أصول المقاصد

ج- الدلالة

أ- فالأهم يدل على أن هناك مُهِمًا لا ينبغي إهماله ولا التفريط فيه ، إنما ينبغي إدراجه في إطاره الخاص به وتنزيله المنزلة اللائقة به ، ودرسه في مرتبته المناسبة له .

ب- أما أصول المقاصد فهي علامة على وجود فروع وهذه الأصول منطلقات أساسية انطلقت منها مجمل الدراسات الإسلامية العربية في مختلف نواحيها ، فالمقاصد منها الأصل الذي لا ينبغي الإحادة عنه ولا تعليله ، ومنها الفرع الذي يمكن تعليله وتأويله .

ج- والدلالة هي الهدف الذي يقصده المتكلم حين يتكلم فهناك دال وهو الإسم ، ومدلول عليه وهو المسمى ، والدليل هو الجامع لهما . إذن فمعرفة الفاعل من المفعول والمبتدأ والخبر ضرورية لازمة لمعرفة أصل الإفادة .

لماذا نزل ابن خلدون النحو منزلة الأولى ؟ هنا ينقلنا ابن خلدون نقلة علمية أخرى أثبتتها اللسانيات المعاصرة وهي أن اللسان يتطور تطوراً خطيراً في معانيه ومبانيه لأنه عرضة لأحداث الخطاب المتكررة في كل حين ، وما العربية إلا لسان من الألسن البشرية يتأثر ويؤثر بما يلاقي من ألسن الأمم التي دخلت الإسلام ، واتخذت اللسان العربي أساساً لها ، لأنه نزل به القرآن " قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون (4) " فيقول ابن خلدون " وكان من حق علم اللغة التقدم ، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسد ، والمسد إليه ، فإنه يتغير بالجملة ولم يبق له أثر ، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة . " (5)

واضح من كلام ابن خلدون أنه يقصد باللغة المفردات اللغوية ، ولا يعني بها اللغة في متعارفنا المعاصر الذي نعني به اللسان بمعناه العام . وفيما يأتي يتضح جلياً ما يعني باللغة واللسان ، وهي إشكالية قائمة بين علماء اللسانيات العامة في عصرنا هذا . لأن اللغة بمعناها العام أي اللسان ،

- سَيَظَرُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكِتَابِ وَفَقِهَااءِ الْبَشَرِيَّةِ ، والذي يبين لنا أنه يقصد التراكيب النحوية إيراد الإعراب الذي يمايز بين المسند والمسد إليه ويناسب الإسناد بينهما .

والحقيقة أنه متى إستعملت كلمة اللغة عند علماء العربية إلا وقصد بها اللهجة الخاصة ، لأنها دائماً تكون مضافة مثلاً : لغة تميم أو لغة حمير أو هذيل إلخ ... وإن كان ابن خلدون أورد تعريفاً يوهم أن اللغة تعني اللسان ، وربما هذا من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وهو متسع في المجاز عند العرب .

فقال : « اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام ، فلا بد أن تصير ملكة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم » . (6)

هذا التطور اللغوي في اللسان العربي كانت له أسباب ونوازع ، ذلك أن الإسلام دين إنسانية جمعاء ، والقرآن بلسان عربي مبين ، فاعتنقته الأمم المختلفة الألسن ، فأثر ذلك في الأداء اليومي بسبب المخالطة والمعايشة والتزاوج بين الشعوب المختلفة يقول ابن خلدون « فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعمرين من العجم ، والسمع أبو الملكات اللسانية . ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها ، لجنوحها باعتبار السمع » . (7)

لابن خلدون مصطلحان هامان وعامان ، لا يخصص لساناً دون لسان ولا قوماً دون قوم . هما :

أولاً : الكلام فعلٌ لسانِي ناشئٌ عن القصد بإفادة الكلام فقوله : فعل يخرج عن التجريدات الفلسفية ، ويضعه في صلب الدراسات العلمية التي تخضع للتجارب المخبرية فينبغي أن ندرس الجهاز الصوتي للإنسان وأحياز الحروف وصفاتها في المخابر.

وما أحسن ما يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح " أن الدوال - اللغوية وغير اللغوية - تتكون دائماً

4- سورة الزمر الآية ص : 23 .

5- ابن خلدون ص . 1055 المقدمة.

6- " ص : 1056 .

7- " ص : 1057 .

من مادة هي قوامها ومحلها ، ونسبها الدال، ومن مضمون يحل هذا المحل وهو المدلول إلا أن اللسان قد يفارق غيره من الدوال في أنه صوت ملفوظ ، فإن بعض الدوال قد تكون مادتها غير صوتية - (تكون أنوارا أو مادة صلبة أو حبرا أو حركات -) وتكون أصواتا لكنها غير ملفوظة أي غير حادثة في الخارج والأحياز الصوتية الإنسانية . فهذه ميزة تمتاز بها عن غيرها . » (8)

إذن فاللغة هي فعل حادث يحدثه العضو الفاعل وهو اللسان .

-المصطلح الثاني : السَّمْعُ أبو الملكات اللسانية إذ هو الحاسة الحساسة التي تؤثر في اللسان ، إذ سرعان ما تؤثر في الألسن المختلفة فتتزوج اللغات ويتداخل بعضها في بعض ، ولا حاجة إلى ذكر بعض الشواهد في جزائرتنا بين اللسان الفرنسي واللسان العربي ، حتى اختلط الأمر على كثير من الأميين بين اللفظ العربي واللفظ الأعجمي .

بيد أن الأمر الذي شدنا إليه كثيرا هو الربط بين حاسة السمع وحاسة البصر والإدراك العقلي واللساني فأغلب الصمُّ بُلَهٌ وَيَكْمٌ ، وأغلب العميان أذكيا . وعباقرة . وقد ذهب أبو هلال العسكري إلى أبعد من ذلك في الفصل الثالث والثلاثين من الباب التاسع وسماء في المضاعفة فقال : «وهي أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه ، وذلك مثل قول الله تعالى " وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ » (9) المعنى المصرح به في هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات وصم عن الكلم البينات ... بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها .

والمعنى المشار إليه أنه فضل السَّمْعَ عَلَى الْبَصَرِ لأنه جعل من الصمِّ فقدان العقل ، ومع العمي فقدان النظر فقط » (10)

هكذا يهتدي ابن خلدون إلى المقومات الأساسية للألسن البشرية ولا يكتفي بوصفها كما يفعل كثير من اللسانيين . كما يهتم بنشأة النحو العربي مع أبي الأسود الدؤلي ليؤرخ له ، ويتابع استخراج قوانينه التي « انتهت إلى التحليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أحوج ماكان الناس إليها ، لذهاب تلك الملكة من العرب ، فهذب الصناعة ، وكَمَّلَ أبوابها ، وأخذها عنه سيبويه ، فكمل تفاريعها ، واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل ما كتب فيها من بعده » (11)

وخلاصة القول ، فإن خلدون يُعَرِّفُ النحو العربي الركنَ الأولَ في هيكلة اللسان العربي بوظيفته الأساسية التي لولاها لجهل أصل الإفادة ، ويتجنب الحدود والقيود والشروط التي أثقلت النحو العربي حتى مجه الذوق السليم ، لأن العربية ليست صناعة العربية التي تعني معرفة القوانين النحوية ، والقواعد الجامدة ، لذا : نجد كثيرا من جهابذة النحاة ، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين ، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته ، أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده ، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي .

8-عبد الرحمن الحاج صالح . مدخل إلى علم اللسان الحديث ص 37مجلة اللسانيات 1971.

9-سورة يونس الآية 42-43

10-أبو هلال العسكري . كتاب الصناعتين . ص 477 . مطبعة دار الكتب العلمية بيروت 1981 .

11-ابن خلدون المقدمة ص . 1057.

وكذا تَجَدُّ كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفَنِّين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية . (12)

هكذا استطاع ابن خلدون بحسه الشاقب إلى التفرقة بين سلامة العربية الأصلية ، وبين القوانين التي تحكمها ، والتي إستبدت بعقول علماء النحو المتأخرين لذا يقول : « لَاتَلْتَفِتَنَّ فِي ذَلِكَ إِلَى خُرْشَقَةِ النِّحَاةِ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ الْقَاصِرَةِ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّحْقِيقِ » (13)

بيد أنه يفرق بين مذهبين في العربية :

فالأول مذهب الأصالة الذي يغني صاحبه عن الآخرين : معرفة القوانين النحوية ، وامتلاك ناصية العربية .

والمذهب الثاني هو الذي لا يجدي صاحبه شيئاً ، ولا يقدم له سوى القوانين الميتة التي أفسدت السليقة العربية .

فالمذهب الأول مذهب سيبويه ومن هذا حذوه ، والمذهب الآخر مذهب المتأخرين من النجاة فيقول في هذا الصدد :

« وقد لمجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة وهو قليل وإتفاقي ، وأكثرها يقع للمخالطين لكتاب سيبويه ، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة .

أما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم ، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة ، أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه » (14) تخلص بنا نظرية ابن خلدون اللسانية إلى التفرقة بين الملكة والتأدية ، فالملكة لا تحصل إلا بالمران والمعاناة والتكرار حتى تعود صفة راسخة في المتكلم ، أما التأدية فعال متغيرة غير راسخة ، تسبق الملكة . وليست هذه الملكة خاصة بلسان دون لسان بل هي صفة مشتركة بين الألسن البشرية جمعاء وفي كل الصناعات بون شاسع بين النظري والعَمَلِي ، لذا لمجد من يتقن النظريات ولا يحسن تشبيهاً وتجسيماً في أعماله . إذن فـ « صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لانفس كيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ، ولا يُحْكَمُهَا عَمَلًا . مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم للمكتنها في التعبير عن بعض أنواعها : الخياطة أن تدخل الخيط في خرت (a) الإبرة ، ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين ، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ، ثم تردها إلي حيث ابتدأت ووتخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين ، ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل ، ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح ، وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو إذا طوبل أن يعمل ذلك لا يحكم منه شيئاً » . (15)

12- . . . ص : 1082

13- . . . ص : 1084

14- . . . ص : 1083

15- . . . ص : 1081

(a) الحرث : ثقب الإبرة وفي حديث عمرو بن العاص « أنه احتضر قال : كأننا أتلفنا من حرث إبرة .

هذا الكلام لا نجد في كتب القدمين ، وإنما نجد عند علماء اللسانيات الحديثة كالعالم الأميركي تشومسكي (16)

الذي فرق بين الملكة والتأدية la compétence et la performance

أو عند سوسير في التفرقة بين اللسان والكلام la langue et la parole

ويكفي ابن خلدون علماً أنه سبقهما إلى التفرقة بين الصفتين :

الركن الثاني للسان العربي هو اللغة .

ماذا يعني ابن خلدون باللغة ؟ عندما نستقرئ ما قال في هذا الصدد نجد يفرق بين علم اللغة ، وفقه اللغة ، وهما موضوعان كثر الحديث عنهما ، وعن التفرقة بينهما هل هما علم واحد أم علمان ؟ وإذا كانا علمين فما أوجه التلاقي بينهما ؟ وما أوجه التخالف بينهما ؟ يتناوب ابن خلدون بالواقعية والدقة ، فقد لاحظ التباين بين الوضع العام ، والأداء الخاص ، يعني بين أصل الوضع والاستعمال ، وأدرك بنافذ ذهنيته العلمية أن القوانين العامة تعني علم اللغة ، والخاصة المستعملة تعني فقه اللغة ، فلتن كان علماء التشريع ميزوا بين الأصول والفروع كذلك علماء اللسان العربي سلكوا نفس المسلك ، ونهجوا نفس المنهج يقول ابن خلدون : « ثم لما كانت العرب تضع الشيء - لمعنى على العموم ، ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها ، فَرَّقَ ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال ، واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ ، كما وضع الأبيض بالوضع لكل ما فيه بياض ، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ، ومن الإنسان بالأزهر ، ومن الغنم بالأملح ، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب » (17) " نستنتج من هذا الكلام أن علم اللغة أعم من فقه اللغة ، وقد اعتاد ابن خلدون أن يعرض الفن ومن ألف فيه ، فقد امتاز في التأليف في فقه اللغة الثعاليبي وسمى مؤلفه بهذا العنوان : فقه اللغة " وهو كتاب ينظر إلى الفروق الدقيقة بين الكلم ، فهو يقول مثلاً « لا يقال كأس » إلا إذا كان فيها شراب وإلا فهي زجاجة ، ولا يقال مائدة إلا إذا كان عليها طعام ، وإلا فهي خوان ولا يقال كوز إلا إذا كان له عروة وإلا فهو كوب ، ولا يقال قلم إلا إذا كان مبرياً ، وإلا فهو أنبوبة ، ولا يقال خاتم إلا إذا كان فيه فص ، وإلا فهو فتحة (أ) ، ولا يقال فرو إلا إذا كان عليه صوف ، وإلا فهو جلد ولا يقال أريكة إلا إذا كانت عليها حَبْلَةٌ (ب) ، وإلا فهي سرير ، ولا يقال لطيمة (ج) إلا إذا كان عليها طيب وإلا فهو عير(د) ».

كل هذه المفردات الفرق بينها العموم والخصوص ، فما كان عاماً يدخل في علم اللغة ، وما كان خاصاً يدخل في فقه اللغة . والذي ألف في علم اللغة «وكان سابق الحلية ... الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ألف فيها كتاب العين ، فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرابعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي» (18) "

16- عبد الرحمن الحاج صالح . محاضرات في اللسانيات لطلبة الدكتوراة 1980.

17- ابن خلدون المقدمة ص . 1062

18- ابن خلدون المقدمة ص . 1059

أ- فتحة: حلقة من ذهب وقضه لاقص تلبس في البنصر كالحاتم .

ب- حَبْلَةٌ : سائر كالحبة يزين بالثياب والستور للعروس .

ج- لطيمة " وعاء المسك

د- عير : وعاء يحمل فيه البز المسك وغيرها للتجارة فهو أعم من اللطيمة .

فالحليل بن أحمد جمع المستعمل والمهمل والشاذ والمطرود والقليل والنادر حسب الوضع اللغوي ، فأنشأ لنا القوانين العامة تاركا الفروق لفقهاء اللغة العربية وهكذا تبقى اللغة تعني الكلم المفردة سواء كانت صيغا محصورة ومضبوطة أو أشثاتا من الكلم، المتناثر لا تحكمها ألا القواميس اللغوية ، وقد أشاز ابن خلدون إلى جل الذين ألفوا في هذا المضمار كأبي بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب " العين " والجوهري في " الصحاح " و (ابن سيده) في " المحكم " و ابن دريد في " الجمهرة " ويختم رأيه بقوله : " هذه كتب أصول اللغة فيما علمناه (19) .

الركن الثالث من علوم اللسان العربي هو علم البيان، وهو علم مستحدث بعد علمي النحو واللغة «وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تنفيده ويُقصدُ بها الدلالة عليه من المعاني . وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي :

إِمَّا تَصَوُّرُ مفردات تسند ويسند إليها، ويفضى بعضها إلى بعض ، والدلالة على هذه، هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف .

وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ، ويُدلُّ عليها بتغيير الحركات وهو الإعرابُ وأبنيةُ الكلمات . وهذه كلها صناعة النحو .

ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات ، المحتاجة للدلالة ، أحوال المتخاطبين أو الفاعلين ، وما يقتضيه حال الفعل ، وهو محتاج إلى الدلالة عليه ، لأنه من تمام الإفادة ، وإذا حصلت للمتكلم ، فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه . وإذا لم يشتمل على شيءٍ منها ، فليس من كلام العرب ، فإن كلامهم واسع ، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة . « (20)

هذا النص في حد ذاته بيان لعلم البيان ، وحد يفصح لنا أن اللسان ليس ألفاظا وما تضمنته من معاني بل هناك أشياء تتجاوز الملفوظ ، وتستفاد من سياق الكلام ، والأحوال التي تلف المتخاطبين ، ومحيط بالمقام الذي قيل فيه هذا الكلام .

ولذا يعتمد ابن خلدون إلى تاريخ العمل الذي يدرسه ويعرج على المتخصصين فيه والبارزين في ميدانه في آخر الفصل بعد أن يفصل القول فيه تفصيلا بضرب الأمثلة.

إن أول شيء يلفت النظر هو التسمية التي أطلقها على هذا الإسم حيث سماه بعلم " البيان " بينما المتداول في عرف الدارسين هو علم " البلاغة " وإذا استجلينا الأمر نجد أنه أصاب المفصل في تسمية هذه ، لأنه يستمد معلوماته من أصول اللسان العربي . أَلَمْ يرد في القرآن : " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان؟ « (21) أَلَمْ يُولف الجاحظ كتابا من أمهات كتب الأدب ، وسماه : البيان والتبيين " ؟ والقرآن يوظف كثيرا مادة (ب/ي/ن) ، فغاية الرسل هي بيان الرسالات التي جاؤوا بها من عندها الله . " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " ليبين لهم « (1)

يرى ابن خلدون أن موضوع علم البيان هو دراسة الأحوال والهيئات المختلفة ، والسياقات والتقديم والتأخير

19- ابن خلدون المقدمة ص . 1062

20- . . . ص : 1064

21- سورة الرحمن . الآية 1 ، 2.

1- سورة إبراهيم الآية 4.

وما استعمل في غير ما وضع له كالاتعارة والكنابة وما ضارعاها من الاستعمالات اللسانية التي تحف بها قرائن تدل على معنى غير المعنى الملفوظ ، ويسمىها عبد القاهر الجرجاني " المعنى ومعنى المعنى (22) " ، ورتب عرضها حسب الطريقة التالية :

1- التقديم والتأخير وذلك للأهمية التي يقصدها المتكلم ويرمي إلى تحقيقها ، فليست هناك استعارة ولا تورية ولا تمثيل ، وإنما السياق هو الذي يحدد المعنى المقصود ، وهي حالة نفسية يسارع اللسان العضو الفاعل إلى إبرازها بدون شعور من المتكلم ، فاللسان هو ترجمان القلب ، وضرب لها هذا المثل " ألا ترى أن قولهم " زيد جاني " مغاير لقولهم : " جاني زيد " من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم فمن قال : جاني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه ومن قال : زيد جاني أفاد أن اهتمامه بالشخص ، قبل المجيء المسند ، وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة . (23)

2- درجة التبليغ حسب حالة المخاطب ، إما أن يكون خالي الذهن خلوا مطلقا ، ليس له أي فكرة مسبقة على الموضوع ، فالخبر بالنسبة إليه ابتدائي محض ، فلا شك لديه فيما يتفوه به المتكلم ، فله خطاب خاص .

وإما أن يكون المخاطب مرتابا فيما يقول المتكلم شاكا فيما يسمع فيحتاج إلى دليل يرفع عنه الإبهام والالتباس ، فيحتاج إلى توكيد يزيح عنه غشاوة الشك والتردد .

وإما أن يكون المخاطب منكرا ، مُعرضاً عن كل ما يسمعه فيحتاج إلى أكثر من عامل إقناع حتى يصدر عن قناعة ثابتة مؤكدة بأكثر من مؤكد .

فدرجات التبليغ مختلفة رغم إتحادها في الإعراب النحوي . وفي هذا الباب يقول ابن خلدون « وكذا تأكيد الإسناد على الجملة ، كقولهم : " زيد قائم " و " إن زيدا قائم " و " إن زيدا قائم " متغايرة كلها في الدلالة ، و إن استوت من طريق الإعراب فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن ، والثاني المؤكد بأن إنما يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر . (23) » .

3- التعريف والتنكير فلكل واحد دلالة خاصة فإنك : تقول : " جاني الرجل " ثم تقول مكانه بعينه " جاني رجل " إذا قصدت بذلك التَّنْكِيرَ تعظيمه ، وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال (23) .

هذه الأضرب التي اعتدنا أن ندرسها نحويا دون أن ننتبه إلى ما فيها من خصائص بيانية تعود إلى التقديم والتأخير ، والتأكيد والإرسال ، والتعريف والتنكير ، وما ينشأ عن هذه الثنائية من جمال في التأدية ، حسبما يقتضيه المقام والحال . ولذا يصح لنا أن نقول إن البيان ليس هو زحمة الاستعارة .

والتجنيس والمطابقة والتورية ، وإنما البيان هو البحث عن أسرار : " هيئات وأحوال للواقعيات ، جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ ، كل بحسب ما يقتضيه مقامه ، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث على هذه الدلالات التي للهيئات والأحوال والمقامات (24) » .

4- مطابقة الجملة للواقع في الخارج أو عدم مطابقتها ، وعند مطابقتها للواقع ، يصح لنا أن نقول للقائل

22- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص 203 طبعة المنار

23- ابن خلدون المقدمة ص . 1065

24- ص : 1066

أنت صادق وإذا لم تطابق الواقع الخارجي، يحق لنا أن نقول للقائل أنت كاذب، وهذه الجملة هي الجملة الحقيقية اصطلاح على تسميتها بالجملة الخبرية، أما التي لاتصادف الواقع وهي التي لا يصح لنا أن نقول لقائلها أنت صادق أو كاذب فهي الجملة الإنشائية، لأنها أنشئت إنشاء، وخلقت خلقا، وتشمل كل أنواع الطلب، وقد أشار إلى هذا بقوله: " ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولا. وإنشائية وهي التي لاخارج لها كالطلب وأنواعه » (23) .

5- الفصل والوصول فقال فيهما " وقد يترك العاطف بين الجملتين ، إذا كان للثانية محل من الإعراب ، فينزل بذلك منزلة التابع المفرد ، نعتا أو توكيدا أو بدلا بلا عاطف ، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب » . (23) .

6- الإيجاز والإطناب : فهناك مواطن تقتضي الإطناب والتوسع ، وأخرى تتطلب الإقتضاب والإيجاز والاختصار أشار إلى ذلك بقوله : " ثم يقتضي المحل الإطناب أو الإيجاز فيورد الكلام عليهما » . (23)

7- المنطوق والمفهوم ، فمن الكلام مايراد به لازمه " ان كان مفردا ، كما تقول : زيد أسد ، فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقه وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد ، وتسمى هذه الاستعارة (23) " .

8- الدلالة على ملزوم اللفظ المركب ، ويتناول الكناية " كما تقول : زيد كثير رماد القدر وتريد ملزم ذلك من الجود وقرى الضيف ، لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما ، فهي دالة عليهما .

وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب (24) "

يكتفي ابن خلدون بهذه الأوضاع الثمانية ، ويبين الغاية منها وهو إظهار إعجاز القرآن الذي نزل باللسان العربي المبين ، وعجز أرباب الفصاحة عن معارضته ، لأنه يستلهم اللفظ المناسب للمعنى المناسب ، وبهذا اللون من البيان يُتَفَاضَلُ بين كلام وكلام وبين قول وقول فيقول ابن خلدون مبينا ثمرة هذا العلم : " اعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي فهم الإعجاز من القرآن ، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة "ومفهومة" . وهي مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها ، وتركيبها ، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأنفهام عن إدراكه ، إنما يدرك بعض الشيء منه مَنْ كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه » (25) .

عُرفَ ابن خلدون بشورته على القوانين التي تحمد المواقعات العملية ، فرغم أنه استعرض مقومات علم البيان ، وقسمه إلى ثلاثة أقسام هي :

أ- علم البلاغة وهو الذي يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال والمقامات التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال (24) .

ب- وعلم البيان وهو الذي يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية (24) " .

ج- وعلم الدبع وهو " النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التجميل ، إما يسجع يفصله ، أو تجهنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك

اللفظ بينهما ، أو طباق بالتقابل بين الأضداد ، وأمثال ذلك «(24)

فرغم كل هذا العرض ، يمتثل ابن خلدون إلى الإدراك الفعلي للعلم . وهذا الإدراك لا يحصل إلا بالملكة الراسخة والذوق السليم ، لذا فإنا لا نستطيع أن نفهم علم البيان مالم نتعرض لمعنى هذين المصطلحين ألا وهما :

الملكة والذوق فما معناهما ؟ تتكرر "لفظه" الملكة في كتابات ابن خلدون ، ويعتبرها المعيار الحقيقي للتمعق في أي فن من فنون الدراسات اللسانية وغير اللسانية ويعني بها الصفة الذاتية الراسخة المتكمنة في وجدان الكاتب أو النحوي أو اللغوي ، بها يدرك الحسَن من القبيح ، والغث من السمين ، والسليم المستقيم من المحال الرديء، هذه الصفة لها أساسان :

أما أن تكون جبلية تنشأ مع الطفولة التي عاشت في محيط عربي صريح ، أو غير عربي ، يسترضعها المولود منذ صباه كما يسترضع حليب أمه ، فيتذوقها كما يتذوقه ، فينشأ المولود مطبوعا بتلك الصفة اللسانية الذاتية التي تشرّبها لحمه ودمه ، فسالت أصواتا عذبة وكلمات أفرادا وتركيبا ، ومثالها كما يرى ابن خلدون " «لوفرنا صبيا من صبيانهم ، نشأ ورى في جيلهم ، فإنه يتعلم لغتهم ، ويحكم شأن الإعراب ، والبلاغة فيها ، حتى يستولي على غايتها ، وليس من العلم القانوني في شيء وإنما يحصل هذه الملكة في لسانه ونطقه »(27)

ورأى أن تكتسب هذه الصفة بالتدرج ، وذلك بمخالطة أمهات الكتب ، وأرباب البلاغة والفصاحة ، وتسبقها حالة غير قارة ، فإذا نضجت واكتملت صارت كالصفة الذاتية الطبيعية إدراكا وذوقا يقول ابن خلدون : " فالتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة العرب ، حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب ، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحنى البلاغة التي للعرب ، وإن سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحنى مجّه ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، بل وبغير فكر ، إلا بما إستفاده من حصول هذه الملكة ، فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلت لذلك المحل (26) "

فإذا تمكنت هذه الملكة في اللسان ، وملكها صاحبها واستولى على ناصيتها أصبحت هي الذوق " واستعير لهذه الملكة ، عندما ترسخ وتستقر ، اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان. والذوق موضوع لإدراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام ، كما هو محل لإدراك الطعوم ، استعير له اسمه ، وأيضاً فهو وجداني اللساني ، كما أن الطعوم محسوسة له ، فقبل له ذوق (28) .

واضح جدا أن ابن خلدون يفرق بين الملكة التي هي حذق الأشياء ومعرفة حقائقها ، وبين الذوق الذي يختص به علم البيان . فالأولى حس متمكن ، والثاني ذوق جمالي ، فقد يملك المرء ملكة القوانين ، ولكنه لا يرقى إلى درجة الذوق ، ولذا ينبغي أن نوضح أن إدراك القوانين وحدها غير مجدبة مالم ترق إلى مرتبة الملكة الدوائية ، لأنه " ربما يدعى كثيرٌ ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له

26- ابن خلدون المقدمة ص : 1085

27- . . . ص : 1086

28- . . . ص : 1087

بها ، وهو غلط أو مغالطة ، وإنما حَصَلَتْ له الملكة في تلك القوانين أو في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شي - (29) فالملكة أعم من الذوق لأنها «موجودة في الملكات الصناعية كلها ، فاعتبر مثلها في اللغات ، فإنها ملكات اللسان ، وهي بمنزلة الصناعة (30).

وخلاصة القول في علم البيان أنه يتجاوز القوانين والضوابط إلى الذوق السليم ، والفهم القويم لأسرار اللسان العربي المبين ، وبهذا ينتهي إلى الركن الموالي من أركان علوم اللسان العربي .

الركن الرابع للسان العربي هو علم الأدب ، ويرى ابن خلدون أنه لاموضوع له ، ولأقوانين تخصه بل يعتمد أساسا على العلوم الثلاثة السابقة ، علم النحو وعلم اللغة ، وعلم البيان ويزيد عليها بمعرفة أيام العرب وأنسابهم وحروبهم وسلمهم وأشعارهم ونثرهم وأفراحهم وأتراحهم وأعيادهم وفرسانهم وتقاليدهم وأعرافهم إلى غير ذلك مما يجمعه مصطلح التراث .

ولئن كان ابن خلدون قال بأن « هذا العلم لا موضوع له ، ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها » (31) فإنه مالمثل أن قال : « ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل شي - بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ماذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ، ليكون قائما على فهمها » (31) (32) .

من هذا التعريف المختصر ينطق ابن خلدون في أجواء الأدب وأركانه ، وموضوعاته التي لانهاية لها ، وذلك بأن يحيط الأديب «بالصناعة الأدبية» ولايفوته أن يعرج على أساطين الأدب العربي ومؤلفاتهم الأساسية الجامعة لأصول الأدب فيقول : « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن يعني الأدب وأركانه أربعة دواوين هي :

1- أدب الكتاب لابن قتيبة .

2- و كتاب الكامل للمهره .

3- و كتاب البيان و التبيين للجاحظ .

4- و كتاب النوادر لأبي علي القالي .

وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها ، وكتب المحدثين في ذلك كثيرة (32)

فإذا عدنا نحن نسترشد هذه المؤلفات لوجدنا تفسير القرآنوالبلاغة والنقد والقصص والسير والشعر والخطب وكل فنون اللسان العربي في هذه الأمهات مستوفاة ، وهذا مايفهم منه أن لفظة الأدب أو « الصناعة الأدبية » كما سماها تعني الثقافة الجامعة المانعة ، ويتجلى ذلك في تقسيمه الكلام العربي إلي فني النثر والشعر ، وخص القرآن بقسم خاص لاهو بالشعر ولا بالنثر ولكنه فرقان .

29- ابن خلدون المقدمة ص . 1088

30- . . . ص . 1096

31- . . . ص . 1069

32- . . . ص . 1070

ولكل فن من هذه الفنون موضوعات خاصة به فهو يقول : " إن لسان العرب وكلامهم على فنين :

1- في الشعر المنظوم وهو :

الكلام الموزون المقفى ، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية .

2- وفي النثر وهو :

الكلام غير الموزون ، وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون و مذاهب في الكلام أما الشعر فمنه المدح والهجاء والثناء ، وأما النثر فمنه السجع للذي يؤتى به قطعاً ، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ، ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ، ولا يقطع أوزاناً ، بل يرسل إرسالاً . ويستعمل في الخطب ، والدعاء ، وترغيب الجمهور . وأما القرآن ، وإن كان من المنشور إلا أنه خارج عن الوصفين ، وليس يسمى مطلقاً ولا سجعاً ، بل تفصيل آيات تنتهي إلى مقاطع ، يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية (23) .

إن هذين الفنين : النثر والشعر ، لهما قوام يقوم عليه ، ومضمون يحتويان عليه ، فلكل فن خصائصه التركيبية والأدائية ، ومستوياته التبليغية ، فمنه ماهو في أعلي درجة التبليغ ، ومنه ماهو متوسط ، ومنه ماهو مردول متروك .

إذن فهناك مقاييس ومجار يجري فيها الكلام إلى ان ينتهي إلى صورته الأدبية التي تستهوي الكتاب والنقاد ويحكمون بأنها إستوفت حقها من التوفية ، وقد أعطى ابن خلدون لكل فن حقه وتناول الأسلوب ومفهومه ، وأطال الوقوف لديه ، فقال :

«ولنذكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون به في إطلاقهم . فاعلم أنها عبارة عنهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب ، أو القالب الذي تفرغ فيه ، ولا يرجع إلى الكلام باعتباره إفادته كمال المعنى ، الذي هو وظيفة الإعراب والبلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب الصحيحة عند العرب ، باعتبار الإعراب والبيان فيحرصها رصاً ، كما يفعله البناء في القالب ، أو النسخ في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة ، باعتبار ملكة اللسان العربي» (37)

لقد ارتضينا أن نقدم هذه الصورة الذهنية التي ينتزعها الذهن من التركيبية النحوية ، والصرفية والبيانية ليسكبها في قالب الأسلوب ، وما يرمي إليه من تصورات وذلك لندرك خصائص كل فن من فني اللسان العربي ، وكان يجدر بنا أن نوضح أن ابن خلدون استعرض أركان اللسان العربي في فصول متلاحقة داخل باب كبير جداً تحت عنوان " الباب السادس في العلوم وأصنافها . والتعليم وطرقه وسائر وجوهه " وهو يشتمل على تسعة وخمسين فصلاً حتى نضع القارئ في صميم موضوع اللسان العربي ومقوماته الأساسية . وابن خلدون مولع بالتفريق بين النظري والتطبيقي حتى لا يخلط الدارس بين العربية كلسان إنساني ، لها ما للألسن البشرية من أوصاف مشتركة ومالها من خصائص ذاتية مميزة ، وقوانين تخصها وحدها في

مقاييسها وحدودها لذا يقول :

« ولاتقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لأننا نقول : قوانين البلاغة هي قواعدٌ عمليةٌ وقياسيةٌ تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس ، وهو قياس علمي صحيح مطرد ، كما هو قياس القوانين الإعرابية وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء ، إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان. » (38)

إذن فالتفريق بين الأسلوب والقوانين البلاغية والنحوية والصرفية والعروضية ضرورة لازمة ، حتى نفايز بين الأسلوب وبين تقرير القواعد والقوانين التي تحكم كل علم ، إلا أن جميع هذه الفنون تصب في مجرى واحد ألا وهو التبليغ المبين ، والتركيب السليم وهذا لا يتم بدون التشجيع من أساليب العرب ، ومن كلامهم الفصيح ، الذي يشتمل على لفظ ومعنى لتأدية الفائدة الكبرى ويصل إلى منتهى البلاغة والبيان، ثم الإعجاز وهو الغاية القصوى .

« اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب ، إنما سره وروحه في إفادة المعنى ، وأما إذا كان مهملًا فهو كالموات الذي لا عبرة به ، وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان. لأنهم يقولون هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال هو فن البلاغة ، وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقرت من لغة العرب ، وصارت كالقوانين. فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المسندين ، بشروط وأحكام هي جل قوانين العربية ، وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير ، وإضمار وإظهار ، وتقييد وإطلاق وغيرها ، يفيد الأحكام المكتنفة من خارج بالإسناد وبالتخاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن، يسمونه علم المعاني، لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها للأحوال المكتنفة بالإسناد ، وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإعراب أو قوانين المعاني كان قاصرا عن المطابقة لمقتضى الحال ، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الأموات .

ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات ، لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه ، فيكون فيها مجازا ، إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة أو أشد لأن في جميعها ظُفْرًا بالمداول من دليله ، والظفر من أسباب اللذة كما علمت ، ثم لهذه الانتقالات أيضا شروط وأحكام كالقوانين صَيَّرُوهَا صناعة ، وسموها بالبيان . وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال ، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها ، وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة . واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزءا البلاغة ، وبهما كمال الإفادة . » (39)

وهكذا ينتهي ابن خلدون إلى أن اللسان العربي هو مركب مؤلف من دواليب ، كل دولا ب يؤدي وظيفته الأساسية وإن طرأ طارئ في أحد الدواليب ظهر الخدش ، أو حدث خلل في بنية من هذه البنى فسد المعنى ، أو اهلكت الأحوال والهياكل التي تكتنف الموضوع . جاء الموضوع مشوها الخلقة ، أو أسيئت عملية الرص والتنسيق ظهر التهلهل في النسيج .

38- ابن خلدون المقدمة ص 1102

39- - - - - ص 1117

المتواضع عليها في كتب النحو كالقياس والاطراد والإستقراء و التركيب. وأخرى نجدها عند علماء البيان كالهينيات والأحوال والمقامات وغيرها ، وماذاك إلا ليقول لنا ابن خلدون " اللسان ليس هو اللفظ والمعنى فحسب وإنما هو الأركان الأربعة التي إستفتح بها كلامه متعانقة آخذا بعضها بسبب بعض ، متكاملة فيما بينها ، وهذا ما ندعو إلى تأصيله في دراستنا للسان العربي في مدارسنا وجامعاتنا ، لأن عملية الفصل بين هذه الأركان ، أفقدت اللسان العربي روحه وسر جماله .

«فاللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني ، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة ، والتعليم ، وممارسة البحث بالعلوم، لتحصيل ملكتها بالمران على ذلك. والألفاظ واللغات، وسائط وحجُب بين الضمائر ، وروابط وختام عن المعاني ولا بد في إقتناص تلك المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها ، وجودة الملكة للنظر فيها ، والأ يعتاص عليه اقتناصها زيادة على ماتكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص . وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة ، بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهي والجبلي ، زال ذلك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم ، أو خف ، ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط " (42) .

فالمملكة والذوق والصورة الذهنية والصناعة الأدبية والأسلوب ، كل هذه لا تحصل إلا بالمعاناة والمران والمجاهدة حتى ترسخ تلك الصفات ، وتصبح جبلية في المتكلم باللسان العربي المبين .